

فلسفة المظلومية في الفكر الشيعي الاثنى عشري

إعداد

د. إيمان محمد محمد عمران

مدرس الفلسفة الإسلامية

كلية التربية – جامعة عين شمس

فلسفة المظلومية في الفكر الشيعي الاثنى عشري

إيمان محمد محمد عمران
قسم الفلسفة الإسلامية كلية التربية – جامعة عين شمس
البريد الإلكتروني : hany.ismail@art.bsu.edu.eg

الملخص :

تتناول هذه الدراسة قضية فلسفية من قضايا الشيعة الاثنى العشرية، وهي فلسفية المظلومية؛ فتلك الفلسفة التي أوجدتها المخيلة الشيعيَّة الاثنى عشرية وأسست لها، كانت الركيزة الأهم في التأسيس لمبدأ الإمامة، التي بنى عليها الشيعة عقيدتهم الدينية، وكانت هذه المظلومية فلسفة مهمة، وسلوكًا تربويًا، قام على أساسه المذهب الشيعي، وسعوا من خلاله لنشر عقيدتهم، القائمة على أحقية آل البيت بالإمامة الدينية والدنيوية، وفق نصوص إلهية، وحديث نبوي " حادثة الغدير" وأكدوا من خلال هذا الظلم الواقع على آل البيت، بداية من الإمام عليّ بن أبي طالب، وحتى الإمام الأخير.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليليّ الفلسفي، للوقوف على البنية الفكريَّة والثقافيَّة للفلسفة الشيعيَّة عامة، والمظلومية خاصة، ومدى تطورها وفقًا للواقع التاريخي. وجاءت الخاتمة، لتبرز دور المخيلة الشيعيَّة الاثني عشرية في التأسيس للمظلومية، والسعي في استغلال الحوادث التاريخية من أجل تأكيد رؤيتهم.

الكلمات المفتاحية: الغدير، كربلاء، الإمام، الشيعة، السنة، الفرق

The philosophy of oppression in the Twelver Shiite thought

Iman Muhammad Muhammad Imran
Department of Islamic Philosophy, Faculty of Education, Ain Shams University
Email: hany.ismail@art.bsu.edu.eg

Abstract :

This study deals with a philosophical issue of the Twelver Shi'a issues, which is the philosophy of oppression. That philosophy was created and established by the Twelver Shiite imagination, was the most important pillar in establishing the principle of the Imamate, on which the Shiites built their religious belief, and this injustice was an important philosophical and educational behavior on which the Shiite doctrine was based, and through it they sought to spread their belief, based on the rightfulness Aal al-Bayt with the religious and worldly imamate, according to divine texts, and the hadith of the Prophet, "the incident of al-Ghadeer", and they confirmed through this injustice that befell the family of the House, beginning with Imam Ali bin Abi Talib, until the last imam.

The study adopted the analytical and philosophical method, to find out the intellectual and cultural structure of Shiite philosophy in general, and the injustice in particular, and the extent of its development according to historical reality. The conclusion came to highlight the role of the Twelver Shiite imagination in establishing oppression and seeking to exploit historical events in order to confirm their vision.

Key words: Al-Ghadeer, Karbala, the imam, the Shiites, the Sunnis, the teams

المقدمة

تعد الشيعة الاثنى عشرية حالة خاصة في الفلسفة الإسلامية، فلقد تجاوزت المذهبية أو الاختلافات العقدية المنصوص عليها بين المذاهب الدينية؛ لتصبح نموذجًا خاصًا في الفكر الإسلامي عامة والفلسفة الإسلامية خاصة، فهذه الفرقة تحديدًا قد اختطت لنفسها أسلوبًا مغايرًا عن كل الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى، له منطلقاته الفلسفية والفكرية وأخيرًا الدينية، فلقد بنى المذهب الاثنى عشري نفسه على أصول محددة، تتفق مع أصول المذاهب الأخرى في جوانب، وتختلف في جوانب مهمة، تقودها إلى فلسفة مغايرة لكل الفلسفات الإسلامية، وكان مفهوم الإمامة من أهم الأصول الفلسفية، التي قامت عليها رؤية المذهب وأسسه، وأقول أصلًا فلسفيًا؛ لأنه تجاوز في رؤيته ومنطقه الرؤي الإسلامية عامة، السنيَّة وبقية الفرق الإسلامية الشيعيَّة وغير الشيعيَّة؛ حتى أضحت الإمامة هي المحرك الرئيس لعلماء المذهب ومفكريه وساسته.

لقد أسست الفلسفة الشيعيَّة الاثنى عشرية فكرة الإمامة، كي تدور حولها رؤيتهم الدينية والدنيوية معًا، ويشتق منها مصطلح الاثنى عشري، الذي صار حجر الزاوية في التأصيل لهم ولرؤيتهم، بوصف الإمامة تنحصر في اثنى عشر إمامًا منصوصًا عليهم، من قبل المولى عز وجل، الذي أوحى إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يبلِّغ بذلك، ولقد تلقَّفت الأجيال تلك المرويات الخاصة بمفهوم الإمامة، وراحت تؤسس لها مستفيدة من تاريخ الفلسفات الإنسانية قاطبة؛ لذلك نجد أفكار المذهب تتماس مع الكثير من الفلسفات الدينية والدنيوية في الحضارات المختلفة، وهذا ما أكسب هذا المذهب زخمًا فكريًا، وخلافات عميقة بينه والمذاهب الإسلامية الأخرى، لما له من خصوصية، اشتقت من مفهوم الإمامة " الاثنى عشري "، وقصدت هذه الرؤية الفلسفية تأويلات خاصة للقرآن الكريم الأصل في الدين الإسلامي، كانت تلك التأويلات تساير فكرهم الفلسفي لفكرة الإمامة الاثنى

عشرية، وفكرهم القائم على كون القرآن الكريم له معنيان، أحدهما ظـــاهر لعموم المسلمين، والثاني باطني خصّ الله به الأئمة فقط ، مما أفقد المـــذهب المصداقية العقدية؛ في نظر الفرق الإسلامية الأخرى.

لقد سعى المذهب الشيعي الاثنى عشري للتأصيل لنفسه، ونشر أفكاره الخاصة عبر عموم المسلمين، وعبر المنتمين له فكريًا وفلسفيًا؛ لذلك ابتدعوا فلسفة المظلومية، التي ارتبطت في مخيلتهم بفكرة الإمامة، التي كانت هـــي الوسيلة المثلى؛ لتحقيق هدفهم الأساسي في نشر المذهب، وقيـــادة المنتمـــين لهم، عبر خلق وعي فردي وجمعي، يؤمن إيمانًا قاطعًا بفكرة المظلوميـــة، التي عانى منها الأئمة طيلة حياتهم، وكذلك انسحبت على عمـــوم الشـــيعة الاثنى عشرية؛ لسعيهم للحفاظ على تنفيذ أوامر الله، والتصدي للفئة الباغية، التي سعت لحجب الإمامة عن أصحابها، وسعوا لتضليل المسلمين، وتحريف كلام الله، وكان من نتائج صمودهم ومناصرتهم لأئمتهم معاناتهم، كما عانى الأئمة من الظلم، الذي تنوعت أشكاله وأساليبه عبر التاريخ، بتنوع أنظمـــة الحكم، التي مارست سلطتها الظالمة في قمع كلمة الحق الشيعيَّة.

هدفت الدراسة إلى الكشف عن ارتباط أصـــل الإمامـــة بالمظلوميـــة ارتباطًا لا ينفصم؛ لأنهم وجهان لعملة واحدة، فيستحيل أن تتحقـــق فكـــرة الإمامة دون تحقق المظلومية، فكل صاحب حق مضطهد مظلوم، مقهور من قبل السلطة الغاشمة أو طواغيت الزمان؛ لهذا تم التأسيس لفلسفة المظلومية بداية من العام الأخير في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

سعت الدراسة لتحليل رؤيتهم للمظلومية التي بـــدأت – مـــن وجهـــة نظرهم – من اللحظة التي تردد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ المسلمين بأمر الله عز وجل في إمامة عليّ وأولاده، خشية الطواغيت التـــي تسعى لحجب كلام الله؛ لذلك راحوا يختلقون الأحاديث، ويضيفون ويحذفون منها؛ لتتماشى مع عقيدتهم الفلسفية في الإمامة والمظلومية؛ لذلك نجد الكثير من المرويات الشيعيَّة، التي تتناقض أو تتعارض مع الثابت تاريخيًا أو دينيًا،

لكنها تخدم فكرتهم، وتؤسس لمقاومتهم لمحيطهم، وتدفعهم للحياة في حالة ثورة دائمة من أجل رفع الظلم الواقع عليهم وعلى أئمتهم.

تكمن أهمية الدراسة في محاولاتها العلمية في مناقشة قضية فلسفية " المظلومية "، التي كان لها أثرها العميق في الفكر الفلسفي الإسلامي، واستطاعت أن تنحرف به إلى مناحٍ ربما ما كان للفكر الفلسفي الإسلامي أن يصل لها دونها، ودون تبعاتها التي توغلت في وجدان الأمة الإسلامية بصفة عامة، ففكرة الظلم والمظلومية تركت أثرها في كل الدول السنيَّة، التي خضعت للحكم الشيعي الإسماعيلي أو الاثنى عشري، رغم زوال هذا الحكم وهذه الدول، لكن أثرها من السهل أن نرى بقاياه في سلوكيات البعض، لذلك تظهر أهمية الدراسة في مناقشة الأساليب الناجعة، التي اعتمدها الفكر الشيعي في غزو المجتمعات الإسلامية، ومدى تأثيرهم فيها.

حاولت الدراسة الالتزام بالحيادية العلمية، فلم تتدخل بإبداء الرأي الخاص المتأثر بالعقيدة الدينية للباحثة، بل اعتمدت مروياتهم في فهم رؤيتهم الفلسفية والعقدية، والكشف عنها، من خلال تأويل أدبيَّاتهم بما يتماشى مع النصوص الثابتة في كتبهم، وكانت الموضوعية العلمية هي المؤسس لهذه الدراسة، التي سعت لاستكشاف فلسفة المظلومية، ووسائل التأصيل لها في عقيدتهم، وكيف استطاعوا أن يخلقوا الوعي الجمعي المتشدد في كل قضاياهم، بما يجعلهم يفكرون بطريقة واحدة، ومنطق واحد، حتى صاروا مجتمعًا منغلقًا، يتميز بكل ما تتميز به المجتمعات المنغلقة، من راديكالية فكرية، وشعور بالاضطهاد الدائم، والرغبة في التمرد، والعنف البادي في تصوراتهم الفكرية، أو ممارساتهم مع محيطهم الدولي، منذ تأسيس أول دولة شيعية، وحتى عصرنا الحالي؛ فبدأت الممارسات الحادة، تخرج للعلن بعد أن كانت تمارس، ويتم تلقينها للأجيال متسترين بالتقيَّة، التي ساعدتهم في خلق مجتمعهم، وفلسفتهم.

لقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي القائم على الرصد والتحليل،

المعتمد على النصوص والمرويات من كتب الشيعة، التي روت الأحداث الرئيسة التي انتخبتها الدراسة؛ لتكشف عن دورها في التأصيل لفلسفة المظلومية.

وقد قُسمت الدراسة إلى عدة مباحث كالتالي:

المبحث الأول: مفهوم الظلم

المبحث الثاني: التأسيس للإمامة وخلق المظلومية في الفكر الشيعي الاثنى عشري

المبحث الثالث: الاحتفالات وخلق الوعي الجمعي لفلسفة المظلومية

وجاءت الخاتمة لتبرز أهم نتائج الدراسة المتمثلة في ارتباط فلسفة المظلومية بفكرة الإمامة، التي تعد أصلًا رئيسًا في المذهب الاثنى عشري، كذلك اعتماد المخيلة الشيعيَّة فكرة التربية؛ لتعميق الشعور بالمظلومية من خلال المرويات الدينية والتأويلات المخالفة للنصوص الثابتة، واعتمادهم فكرة الأعياد والاحتفالات في ربط المواطن الشيعي بفلسفة المظلومية.

المبحث الأول

مفهوم الظلم

يتعين علينا أن نحدد مفهوم الظلم بصورة عامة قبل أن نخوض في مفهوم الظلم والمظلومية في الفكر الشيعي الاثني عشري، الذي بنى عقيدته على مفهوم المظلومية، رغم أنه لم يعُدّ هذا المفهوم أصلا من أصول المذهب الشيعي الإمامي الاثني عشري، لكنَّ القائمين على التأصيل لهذا المذهب، نجحوا في توظيف فكرة المظلومية؛ لتحقيق أهدافهم السياسية والدينية المذهبية معًا. لهذا كان لزامًا أن نحدد المفاهيم والأهداف التي تقصدها الدراسة مقدمًا.

في اللغة مشتق من الفعل الثلاثي ظَلَم، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه[1] فالظلم هو إنكار الحق وحجبه عن أصحابه، ويرى البعض أن الظلم " هو النقص كما قال الله تعالى " كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا" (الكهف ٣٣)، أي لم تنقص منه شيئًا، والظلم كذلك هو مجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء، من زادَ على هذا أو نقصَ فقد أساءَ وظلمَ – أو ظلم وأساء –، "..." أي ظلم نفسه بما نقصها من الثواب"[2]

فالظلم هو منع الحق عن مستحقيه، والظلم معنوي، مادي، أو أحدهما فقط، ويفسر البعض الظلم من خلال أقوال العرب، فيقولون هو الحيد عن القصد أو الهدف السديد، لأن العرب تقول " الزم القصد، ولا تظلم عنه، أي لا تجر عنه، وهو اسم لما أخذ بغير حق، أي غصبًا، والغصب سلب حق الغير دون وجه حق"[3]

---

١) مجد الفيروز أبادي: القاموس المحيط، بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، مج ٤: ص١٤٧

٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة، مكتبة مصر، ٢٠٠١م، مج ٥، ص: ٣٥

٣) ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، دمشق، ج١٢، ص: ٣٢٧

وقد جاء الظلم في القرآن الكريم بمعان متعددة، منها " الفساد وهو التلف والاضطراب والخلل، وإلحاق الضرر بالناس، يقول تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (الروم ٤١) يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، إن فساد البر هو قتل ابن آدم، وفساد البحر، السفينة غصبًا، أي غصب الناس حقوقهم، ويلاحظ أن الفساد والطغيان متلازمان"(١)

بعد أن استعرضنا مفهوم الظلم اللغوي والديني نؤكد من خلال ما سبق أن الظلم هو حجب الحق عن أصحابه، أو دحضه بقوة الظالم، الذي يسعى لتعضيد سلبه لحقوق الآخرين، ومن خلال هذه الرؤية سعى الفكر الشيعي الاثنى عشري؛ لتأكيد مفهوم المظلومية المطلق للإمام علي رضي الله عنه، ولآل البيت جميعًا، لكنَّ مفهوم الظلم في الفكر الإسلامي لم يحظ بالتركيز أو الاهتمام، فالفكر الإسلامي ومن قبل الفكر الفلسفي في كل الفلسفات القديمة، وكذلك الشرائع القديمة سعوا إلى ترسيخ مفهوم العدالة، فالعدالة هي الضامن الحقيقي؛ لنبذ الظلم ومقاومته، لكن التساؤل المهم الذي تسعى الدراسة للإجابة عنه، هو لماذا تبنى الفكر الشيعي للمظلومية؟ ولم يتبن مفهوم العدالة؟ وقبل الإجابة على هذا التساؤل ستعرض الدراسة لمفهوم العدالة بإيجاز في الفكر الفلسفي اليوناني، والشرائع القديمة، من أجل تأكيد قصد المفكر الشيعي الاثنى عشري؛ لترسيخ فكر المظلومية في المخيلة الثقافية والشعبية للشيعة.

---

١) عثمان محمد غنيم، الظلم رؤية شرعية، كتاب الأمة، ص ٤٤ : ٤٥

مفهوم العدالة في الفلسفة اليونانية:

تثير كلمة العدالة ارتياحًا في النفس، تصاحبه عدة تساؤلات حولهـــا، فهل هي وسيلة أم غاية؟ بمعنى هل العادل يرغب فيها لـــذاتها أم لنتائجهـــا؟ وهل يمارسها طواعية أم خوفًا من ردع الشرائع التي ترغمه على احتـــرام المساواة؟ ومن القادر على تطبيق العدالة؟ ومن العاجز عن هـــذا التطبيـــق؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تدفع الباحث فيها إلى تقصي حقيقتها، والوقـــوف على إجابات لهذه التساؤلات، ولعل الفكر اليوناني بما حوى من موضوعات خير من يجيب عما يبتغيه الباحث في مفهوم العدالة؛ لأن للفكـــر السياســـي بصفة عامة مكانة هامة عند اليونانيين، "يذهب بعض المفكرين إلى أنهم هم الذين ابتكروا الفكر السياسي بالمعنى الدقيق، فقد كان تصـــور المـــواطنين للحكومة في مجتمع – ما – تصورًا محاطًا بالقداسة، فما يراه الحاكم هو ما يراه الله ولا اعتراض عليه[١]

كانت الحرية السياسة المتوفرة في بلاد الإغريق ميزة مهمة، هيـــأت لهم الظروف لمناقشة قضايا الدولة ونظمها، وكيفية إدارتها، ومنحـــت هـــذه الحرية وعيًا كبيرًا لدى الشعب، للحوار والمناقشة ومن ثم إنتاج نظام سياسي يتبنى فكرة العدالة.

وكان أفلاطون من أوائل من تبنوا هذا المفهوم، وتحدث عنه في محاوراته، لكن مفهوم العدالة عند أفلاطون كان نابعًا من النظرة الإغريقية للأمور، فالعدالة بمفهوم أفلاطون " هي سلامة الدولة "[٢] فالإغريق بطبيعتهم المجتمعية كانوا مجتمعًا طبقيًا، يعني بسلامة الدولة التي تقوده نخبة أرستقراطية، هذه النخبة لها كل الامتيازات، والحقوق، ولا تتساوى مع بقية

١) د. نبيلة زكري ذكي، مفهوم العدالة عند أفلاطون، مجلة علوم وفنون، جامعة حلوان، مـــج١٤، ع ٣ ، ٢٠٠٢ ، ص ١٦٩

٢) كارل بوبر: المجتمع المفتوح وأعداؤه، تر، السيد نفادي، دار التنـــوير ، لبنـــان، ط١، ١٩٩٨، ص ٩٦

الشعب، ومن هنا بدا مفهوم العدالة عند أفلاطون أو في الفلسفة اليونانية منقوصًا أو بمعنى آخر مخالفًا للمفهوم الحديث في عصرنا الحالي، وذلك نتج من أن مفهوم العدالة ليس مفهومًا مجردًا، إنما هو مفهوم يرتبط بالأخلاق العامة للمجتمعات، لذلك تعد العدالة قيمة أخلاقية في الفكر اليوناني القديم[١]

وتبقى العدالة أخلاقية رغم ارتقائها إلى الفضائل الاجتماعية، وفي ذلك المستوى يكون تأثيرها بالغًا في القانون؛ وتلك العدالة بمعناها العام عرَّفها أرسطو باعتبارها انسجام بين سلوك الفرد مع القانون الأخلاقي، فالعدالة فضيلة اجتماعية موجودة في الإنسان وفق تصنيفاته التي صنفها الفكر الفلسفي الإغريقي، وكذلك المجتمع بتقسيماته المختلفة.[٢]

وهذه القيم الأخلاقية للمجتمع الإغريقي هي التي خلقت مفهوم العدالة عند أفلاطون، " فلقد ذكر أفلاطون في محاورة جورجياس " التي هي أسبق من الجمهورية " عن وجهة النظر التي تقول إن العدالة هي المساواة، لكنها ليست المساواة التامة بين المواطنين، بل المساواة التي تتفق مع الطبيعة ذاتها، والطبيعة مختلفة من شخص لآخر، فهناك من يتميز بالنبل والشجاعة، وهناك من تتميز صفاته بالدونية أو الأعمال المتواضعة، وهذا ما تأثر به أرسطو ونادى به عندما قال إن بعض البشر خُلقوا؛ ليكونوا عبيدًا، لذلك فالعدالة من وجهة نظرهم لا تعنى المساواة التامة، إنما تعني المساواة الحسابية، وليست المساواة المتناسبة[٣]

إن نظرة أفلاطون عن العدالة كانت نظرة نخبوية، قامت بتأثير من إعدام أستاذه سقراط، فإعدام أستاذه حدا به إلى تأمل سياسة البلاد، ووجد أن العدالة لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل حكيم فيلسوف، أي حين يصبح

1)G.C The philosophy of plato,London 1969, 2ed,p48

٢) محمد محسوب العدالة في الشرائع القديمة، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، مج ١٣، ع ٢٥، جامعة المنوفية، كلية الحقوق، ٢٠٠٤ص ١٣٥

٣) راجع في ذلك كارل بوبر: المجتمع المفتوح وأعداؤه، ص ٩٦

الفلاسفة حكامًا، أو يتحول الملوك إلى فلاسفة، ويحاول أفلاطون تعريف الظلم بأنه عدم نقاء القلب، والسلوك أو بعبارة أدق، عدم النقاء الاجتماعي؛ لأن العدالة، في نظره هي النقاء الاجتماعي(١)

لقد كان أفلاطون وهو ينشئ مفهوم العدالة يؤسس لدراسة النفس البشرية، فالعدالة لا تتحقق إلا من خلالها، لقد أراد أن يحقق العدالة من خلال خير النفس، وهي تعمل في نطاقها الاجتماعي السليم؛ لأنه يعتقد أن كل الظاهرات الاجتماعية وليدة هذه النفس، التي تستطيع من خلال نقائها أن تؤسس لمفهوم العدالة (٢)

لكن التساؤل المهم الآن هل تغافل أفلاطون عن الحديث عن الظلم وأثاره، عندما تُفتقد العدالة؟ لم يتغافل أفلاطون الظلم وتعريفه، فلقد أوضح " أن الظلم مجلبة للضرر، ومجلبة للعار، الذي يفرض على صاحبه الشقاء التام، فهو يرى أن بقاء الظلم في نفس صاحبه هو الشقاء الأكبر، في حين أن القصاص منه، هو الشقاء الأصغر، فلا يوجد شقاء في الظلم أكثر من بقائه دون قصاص وإصلاح، فكما أن المرض شقاء الجسم، فالظلم شقاء الروح (٣) لذلك فالعدالة تعد هي شفاء الروح وصلاحها، وهي التي تؤسس لسلامة الدولة، من خلال سلامة أرواح مواطنيها.

---

١) راجع: ارنست باركر النظرية السياسية عند اليونان ج١ تر: لويس إسكندر، د. محمد سليم، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٦،ص ٢٤٠

٢) راجع: المرجع السابق: ص ٢٨٢

٣) راجع المرجع السابق ص: ٢٤٠

العدالة في الشرائع القديمة

لن أستعرض كل مفاهيم العدالة في الأديان والشرائع القديمة، إنما سأكتفي برؤيتين مهمتين في فكرة نشوء مفهوم العدالة قديمًا، ومع الإنسان الأول الذي سكن الكرة الأرضية، وهناك رأيان في فكرة العدالة والقيم الأخلاقية الإنسانية ونشوئها، الأول قال به ويل ديورانت، والثاني لهنرى جميس برستيد، وكلاهما يتبنى رؤية مخالفة للآخر، لكنها تنتهي في النهاية إلى وجود العدالة الأخلاقية، وبفضلها قامت الحضارات.

الرأي الأول: يقول ويل ديورانت في تفسير نشوء العدالة " لكي تقيم المجتمعات على الأفراد حارسًا غير منظور، ولكي تُقوِّي فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية، بما تثيره من آمال قوية ومخاوف قوية، فإنها استخدمت الديانة وإن لم تخترعها[١] فالدين هو الذي نظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في تلك المجتمعات القديمة، بما له من سطوة قوية، فرضت سلطتها على الجميع، وأحدثت توافقًا بين القيم الدينية والضمير، ولعبت سلطة التحريم في الأديان دورًا مهمًا في إحداث العدالة المجتمعية، التي تقوم على فكرة المساواة في كل شيء، وعدم الاعتداء أو سلب الحقوق، وهذا ما نلمسه في قصة ابني آدم، عندما قتل أحداهما الآخر اعتراضًا على قيم العدالة التي فرضها الدين في وقته.

الرأي الثاني: تبنى هنرى برستيد في كتابه فجر الضمير رؤية مختلفة، حيث زعم أن الإنسان في حياته الأولى لم يكن يبحث عن العدالة أو المساواة، حيث كان أسير غرائزه وشهواته التي تتحكم فيه، وتُصدر أفعاله، ويذكر أن الإنسان ظل هكذا لمدد كبيرة؛ حتى استطاع أن يُبلور مفهوم العدالة، الذي ضمن له الاستقرار، وتكوين المجتمعات الكبرى، التي نشأت عنها الدول والحضارات، ويزعم أن العدالة والمساواة ظهرا في بداية

---

١) ويل ديورانت: قصة الحضارة، تر، ذكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـــوم، ج١ ص ٩٧

عصر التدوين أو العصر التاريخي[١] وتصبح قيم العدالة والمساواة من خلال وجهة النظر تلك تطورًا تاريخيًا، نتج عن تطور الحياة على الكرة الأرضية، خضع فيها الإنسان وحياته إلى تطور أخلاقي، يواكب التطور المدني والحضاري، فكلما تقدم في الزمن تقدمت أسباب الحياة الأخلاقية، التي تؤسس للعدالة، التي أقامت أو أسهمت في نشوء الحضارات.

وترى الدراسة أن القيم الأخلاقية التي أنتجت مفاهيم العدالة والمساواة والضمير قد بدأت مع احتكاك الإنسان بالكرة الأرضية، فوجود الإنسان على الأرض، بدأت معه القيم الأخلاقية، التي تنظم حياته، وتُمكِّنه في صراعه مع الطبيعة القاسية، فحياة الإنسان الأول لم تكن رفاهية؛ حتى يدخل في صراع مبكر مع أخيه الإنسان، دون قيم أخلاقية، تحفظ الحقوق، فلقد كان الصراع مع الطبيعة هو الدافع الأهم في التأسيس للقيم الأخلاقية ومفاهيم العدالة، التي تؤسس لأسباب الحياة ونجاحها، ولعل قصتي ابني أدم أكبر دليل على وجود قيم أخلاقية حاكمة، تعود إلى الدين الأول للإنسان.

ومما يدحض وجهة نظر برستيد في قضية العدالة والقيم الأخلاقية، هي دراسات علم الأجناس للقبائل البدائية التي تحيا في القرن العشرين، فلقد لاحظوا أن تلك القبائل تعتمد اعتمادًا كليًا على الدين، بوصفه مصدرًا؛ لتحديد مفهوم العدالة والقيم الأخلاقية، لدرجة أن مكانة الفرد في القبيلة تتحدد من خلال ما يقدمه للقبيلة من خدمات، تتوافق مع القيم الأخلاقية النابعة من الدين، مما جعل القبيلة خلية نحل، كل فرد يقوم بواجباته التي لا يمكنه النكوص عنها، ولو نكص لكان خارجًا عن نظام العدالة أو النظام العادل في المجتمع القبلي[٢]

---

١) انظر : هنري جميس برستيد، فجر الضمير، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مهرجان مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ١٦: ٢٠

٢) محمد محسوب، أثر العدالة في الشرائع القديمة، ص ١٦٢

العدالة في الفكر الإسلامي " نقيض الظلم "

عندما نسعى للتأسيس لمفهوم العدالة في الفكر الإسلامي، سنجد الفرق الإسلامية الكبرى تعاملت مع مفهوم العدالة بنظرتين، نظرة تتحدث عن الظلم ومنتجاته، والنظرة الثانية تتبني وسائل تحقيق العدالة والمساواة ونشرها بين الرعية، لكن لأسباب الحكم الإسلامي وتقلباته الشديدة، وما عاشته الدولة الإسلامية في مطلع تأسيسها، حظي الظلم باهتمامٍ واضحٍ من قبل تلك الفرق، التي – من الواضح – أنها وقعت تحت مطرقة الظلم في حقبة من حقبها الطويلة، لذلك أصَّلت له، وربما يكون هذا التأسيس أو التأصيل هو الذي حدا بالشيعة الاثنى عشرية إلى الالتصاق بفلسفة المظلومية، التي صنعوها صناعة حاذقة للتأسيس في فكر رعاياهم.

إن القول في معنى الظلم مبنيًا على قضية التحسين والتقبيح، قد وقع الخلاف في معناه في الفرق الإسلامية على ثلاثة أراء:

<u>الأشاعرة</u>: فالظلم عندهم يعني التصرف في ملك الغير، أو أنه مخالفة الأمر الذي تجب طاعته، كما أن الظلم بالنسبة لله غير ممكن الوجود، بل كل ممكن إذا قُدِّر وجوده فإنه عدل، والظلم منه ممتنع غير مقدور، وهو محال لذاته كالجمع بين الضدين(١) فلو عذَّب الله العبد القائم بالطاعات ونعَّم العاصي لم يكن ظالمًا؛ لأن الظلم عندهم إنما هو التصرف في ملك الغير، والله تعالى مالك الملك.

<u>المعتزلة</u>: تُعرِّف المعتزلة الظلم بأنه: كل ضرر لا نفع فيه، ولا دفع ضرر، ولا استحقاق ولا الظن للوجهين المتقدمين، فجملة تعريف العدل عندهم أنه :" ما يقتضيه العقل من الحكمة، وهو إصدار الفعل علي وجه الثواب والمصلحة ". (٢)

---

١) ابن تيمية : جامع الرسائل تحقيق محمد رشاد سالم، دار المدني، ج ١ ص ١٢٢

٢) القاضي عبد الجبار : المغني ج٦ التعديل والتجوير تحقيق د. احمد فؤاد الاهواني، ود. ابراهيم مدكور، ط القاهرة سنة، ص٤٨ ١٩٦٢.

ويذهب أكثرهم إلى أن الله لا يفعل الظلم مع قدرته عليه إلا أن بعضهم يقول إن الله لا يستطيع فعل الظلم، مثل: النظَّام والجاحظ؛ فحسب زعمهم ذلك يوجب النقص، فأفعال الله كلها تتصف بالعدل والحسن، وينفون عنها القبح ،بما فيه نفي أعمال العباد القبيحة عن الله عز وجل رضاء وخلقاً؛ لأن ذلك يوجب نسبة القبيح إلى الله تعالى ، وسبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، فكل قبيح يقع في العالم فهو من أفعال العباد ، والله تعالى غني عن فعله [١] ، فالله عند المعتزلة عدل لا يظلم؛ لأنه لم يرد وجود شيء من الذنوب، لا الكفر ولا العصيان، فالله لم يخلق شيئًا من أفعال العباد، لا خيرا ولا شرا؛ لأنه لو كان خالقًا، لها ثم عاقب العاصين لكان ظالمًا لهم، لقد اعتمدت المعتزلة إلى أن وجود صفة العدل تتطلب ألا يجبر الله أحدًا علي أفعالٍ ثم يحاسبه عليها؛ فيخلص قولهم إلي أنه لا مجال لحساب في ظل الجبرية، فحاول المعتزلة التأكيد على أن الإنسان حر في أفعاله، مُنح القدرة على الفعل، وتركُ يخلقه بإرادته الحرة، وينسب المعتزلة المتولدات عن فعل الإنسان إلى تلك القدرة التي أحدثها الله فيه، وتلك القدرة الإنسانية على الفعل والتأثير هي فطرة بحكم قوانين الخلق.

<u>أما أهل السنة:</u> فالظلم عند أهل السنة هو وضع الشيء في غير موضعه، أي أن الظلم الذي حرَّمه الله على نفسه، وتنزه عنه هو أن لا يُحَّمل المرء سيئات غيره، ولا يُعذِّبه إلا بما كسبت يداه، ولا يُنقص من حسناته، والله سبحانه قادر على الظلم، ولكنَّه تركه؛ لذلك استحق الحمد والثناء . فعقوبة الإنسان بذنب لم يرتكبه ظلم يتنزه الله عنه، وإثابة العبد المطيع فضل وإحسان منه، فالله تعالى حكم عدل، يضع الأشياء في مواضعها، فلا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يناسبه، ولا يفرق بين متماثلين[٢]

---

١) القاضي عبد الجبار، المغني ج٦ ص١٣

٢) بان تيمية، جامع الرسائل ج١ ص ١٢٤

العدالة في الفكر الشيعي

سعت الدراسة للتأصيل لمفهوم العدالة بوصفها رؤية فلسفية في المقام الأول، وحاولت أن تربط بين العدالة الفلسفية والرؤية الشيعيَّة لمفهومها العام والخاص للعدالة، لكنَّ الأمر يبدو ملتبسًا عندهم، فالفكر الاثنى عشر بني أيديولوجيته السياسية والدينية والاجتماعية على فكرة الإمامة، وسعوا في ترسيخها بكل الوسائل الفكرية المتاحة، ولأن الفكر الشيعي تأسس في كثير منه من خلال الفلسفات العميقة في تاريخهم الحضاري، فارسيًا وإنسانيًا، فلقد نجحوا في خلق رؤية خاصة بهم عن العدالة، تقترب من الرؤية الفلسفية عند فلاسفة الإغريق " أفلاطون وأرسطو" القائلة بتقسيم المجتمع لمجموعات تتوارث صفات بعينها، وكذلك يتعين على المجتمع أن يُقوِّمهم وفق هذه الصفات، التي غرسها الله فيهم، أو خلقهم بها؛ لذلك كان آل البيت أساس الفكر الشيعي في كل مناحي الحياة والدولة، فجاءت تقسيمات المجتمع تساير بشكل ما تقسيمات المجتمع اليوناني القائم على فكرة الحكام، الذين يمتلكون صفات تؤهلهم لذلك، ثم طبقات الجند أو القادة العسكريون الذين يحمون قوام الدولة، ثم بقية المواطنين، ويأتي في نهاية هذه التقسيمة طبقة العبيد، الذين خلقوا ليكونوا عبيدًا.

فجاء المجتمع الشيعي مقسمًا إلى مجموعات أعلاها طبقة الأئمة الذين يمتلكون العلم التام بأمور الدين والدنيا، المنوط بهم قيادة الأمة؛ لتحقيق سلامة الدولة، التي بطبعها تحمي أو تؤسس لسلامة المواطنين ودينهم، ثم طبقة الفقهاء الذين ورثوا سلطتهم الروحية والسياسية بعد إقرار فكرة الغيبة الكبرى للإمام المنتظر، فهم منوط بهم القيام بما كان على الإمام أن يقوم به؛ حتى عودته، ثم تأتي بقية الطبقات الأخرى طبقة الجند، ثم المواطنين الذين يتفانون في خدمة فكر الأئمة، ثم فكرة الدولة وسلامتها، لهذا كان لا بد من خلق أيقونة فلسفية خاصة تساعدهم في شحن همم المواطنين، وشحذ هممهم من أجل الدفاع عن الأصول الكبرى في الفكر الشيعي الإمامي.

المبحث الثاني

التأسيس للإمامة وخلق المظلومية في الفكر الشيعي الاثنى عشري

سعى الشيعة للتأسيس لفكرة الإمامة مبكرًا، فهذه الفكرة هي التي ستضمن لهم إبداء حقهم في الحكم، والتأسيس لرؤيتهم السياسية، التي تعتمد فكرة السمو، أو الأفضلية المطلقة لطبقة معينة على غيرها من بقية البشر، لذلك فهي – أقصد الطبقة المقدسة – المنوط بها المطالبة بالإمامة أو الحكم، وهذه الطبقة لابد أن تتميز بالقداسة، وهنا لاحت شخصية الأئمة في الحالة الشيعية، فلقد كان هناك تركيز واضح على شخصيات الأئمة الاثني عشر على وجه التحديد، إذ سعت المخيلة الشيعيَّة على تبيان أوجه قداستهم المطلقة، علميًا، دينيًا، ودنيويًا، بما لهم مقدرة كبرى على إدارة دفة الحكم، وعقد مقارنة بينهم والخلفاء المعاصرين لهم، وإظهار التفوق المطلق للأئمة على سواهم، وهو ما سيصب لاحقاً في مصلحة التأكيد على مظلومية أئمة آل البيت، وعلى أحقيتهم بالسلطة، وشرعية سعيهم لنيل حقهم المسلوب، ومن هنا يظهر التماهي والتداخل بين المجالين السياسي والديني.

حادثة الغدير والتأسيس للإمامة

(١)

" كان المقدس ولا يزال أحد أهم أسلحة الصراع داخل المجال الإسلامي، بل هو أهمها على الإطلاق، قديمًا وحديثًا، ما جعل الرواية عن النبي أو أية جهة معصومة – التي قصد في بدايات تناقلها الشفاهي الأول الاتصال بمصدر القداسة، للاطلاع على استلهام نبوي أو إلهي معين– تنقلب بعد النبي عن وظيفتها، من الكشف عن موقف النبوي، إلى تجبير هذا؛ لمصلحة حدث وموقف وترتيب لاحق عليه، فكانت الرواية أو النص جزءًا أساسيًا من استراتيجيات الغلبة والإلزام وإثبات أحقية وصوابية، اعتمدتها

الاتجاهات السياسية المتعارضة والتضامنات الاجتماعية بصيغ متعددة، وأعداد هائلة، بوصفها أداة مساجلة ومسوغ إلغاء بل سلاح إبادة أحيانا[١]

تُمثِّل حادثة الغدير[٢] في الفكر الشيعي الإمامي حدثًا مؤسسًا للرؤية السياسية والأحقية التامة في الإمامة والحكم، فلقد كان الحديث وسيلة كبيرة لمساجلة المعارضين لحكم آل البيت، الرافضين لحقهم في الولاية التامة على الأمة، لذلك كانت هذه الحادثة المؤسسة لفكرتي الإمامة والمظلومية معًا، فهي في مضمونها الأول تؤكد حق الإمام علي رضي الله عنه في الإمامة، وفي المضمون الثاني تُشيع أن الظلم البين قد وقع عليه عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وانتزع حقه انتزاعًا بعد حادثة السقيفة.

تقف حادثة الغدير من المخيلة الدينية الشيعيَّة الإمامية بوصفها بداية التاريخ الحقيقي للأمة، فهي الحدث المؤسس لكل شيء، وكأنها دين يقيم للناس حياتهم، فحسين الأميني مؤلف كتاب الغدير يؤكد تلك الفكرة عندما يصف حادثة الغدير قائلًا " لا يستريب أي ذي مسكة في أن شرف الشيء بشرف غايته، فعليه أن أول ما تكسبه الغايات أهمية كبرى من مواضيع التاريخ هو ما أسس عليه دين، أو جرت به نحلة، واعتلت عليه دعائم مذهب، فدانت به الأمم، وقامت به دول، وجرى ذكرها مع الأبد، ولذلك تجد أئمة التاريخ يتهالكون في ضبط مبادئ التاريخ وتعاليمها، وتقييد ما يتبعها، من دعايات وحروب، وحكومات وولايات التي نسب عليها الحقب والأعوام[٣] إن المخيلة الشيعيَّة الإمامية تؤكد من خلال ما سبق أن حادثة الغدير تعد بادئة التاريخ المؤسس للمذهب أو للدين الشيعي الجديد، الذي يقوم

١) وجيه قانصو، الشيعة الإمامية بين النص والتاريخ، دار الفارابي، لبنان، ط١ ، ٢٠١٦م ، ص ٢٤

٢) تطلق الدراسة على الحديث النبوي الشريف الخاص بالغدير لفظة الحادثة، لأنها تحولت على يد الشيعة من مجرد حديث إلى حادثة لها توابع كثيرة بين القرشيين وآل البيت

٣) عبد الحسين أحمد الأميني النجفي: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ١٩٩٤، ص ٢٢

أصله على فكرة الإمامة، التي تتفرع منها المظلومية، التي تؤكد حق الأئمة في الحكم والسيادة، لذلك يُكمل مؤلف كتاب الغدير كلامه مؤكدًا أهمية حادثة الغدير في التاريخ الديني الشيعي:

" إن واقعة غدير خم هي من أهم تلك القضايا، لما ابتنى عليها وعلى كثير من الحجج الدامغة، مذهب المُقتصين أثر آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم، ... فإن يكن المؤرخ منهم، فمن واجبه أن يفيض على أمته نبأ بدء دعوته[١] والحادثة تؤكد من خلال وجهة النظر الشيعيَّة إمامة علي بن أبي طالب للأمة الإسلامية، ولقد جاء هذا في احتفال رسمي شعبي، في العام الأخير من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، " فلقد توجت جميع تلك الجهود المضنية، والمتواصلة باحتفال جماهيري نُصِّب فيه رسميًا، في آخر حجة حجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخذت البيعة له فعلًا من عشرات الألوف من المسلمين، الذين يرون نبيهم للمرة الأخيرة[٢]

ترى المخيلة الشيعيَّة أن حادثة الغدير إعلان ديني جماهيري لولاية الإمام علي على المسلمين، وخلافته للرسول عليه الصلاة والسلام، وترى كذلك أن هذا الإعلان كان في العام الأخير للرسول؛ لأنه تتمة الدين، فلقد اكتمل الإسلام، لذلك يتعين على الرسول عليه الصلاة والسلام إعلان الولاية لعلي، للتأكيد على تمام الرسالة، وتمام الدين، فالمخيلة الشيعيَّة ترى أن " حديث الغدير تضمن إشارة إلى حادثة تاريخية وقعت في السنة الأخيرة، من حياة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وبالذات في الأشهر الأخيرة منها، حيث إنه صلى الله عليه وآله وسلم قد حجّ حجته المعروفة بـــ حجة الوداع فلما قضى مناسكه، انصرف راجعًا إلى المدينة، ومعه جموع غفيرة تُعدّ بعشرات الألوف من المسلمين، فلما بلغ موضعًا يقال له " غدير خم" ...

١) المرجع السابق: ص ٢٢

٢) السيد جعفر مرتضي العاملي، الغدير والمعارضون، دار السيرة، لبنان، قم إيران، ١٩٩٦م ص: ١٧

نزل جبرائيل عليه في ذلك الموضع، في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة بقوله تعالى " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" حيث أمره سبحانه وتعالى أن يُقيم عليًا، إمامًا للأمة، ويبلغهم أمر الله سبحانه وتعالى(١) رسمت المخيلة الشيعيَّة الخطوط الأساسية لفكرة الإمامة، وادعت أنها أمر إلهي ملزم للرسول عليه الصلاة والسلام، الذي التزم بهذا الأمر، وخطب في الناس مؤكدًا ومعلنًا إمامة الإمام علي للمسلمين " فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ ونعى إلى الأمة نفسه فقال: إني دعيت ويوشك وأن أجيب، وقد حان مني خفوق من بين أظهركم، وأني مخلف فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا؛ حتى يردا عليَّ الحوض، ثم نادى بأعلى صوته: ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟ فقال: اللهم بلى، فقال لهم علي النسق، وأخذ بضبعي علي فرفعهما؛ حتى رُئي بياض ابطيهما وقال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله، ثم نزل ... وجلس في خيمته وأمر عليًا أن يجلس بخيمة بإزائه، ثم أمر المسلمين أن يدخلوا عليه، فوجًا فوجًا، فهنئوه بالإمامة، ويسلمون عليه بأمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك اليوم كله، ثم أمر أزواجه وجميع النساء المؤمنين معه، أن يدخلن معه، ويسلمن عليه بأمرة المؤمنين ففعلن ذلك، وكان ممن أطنب في تهنئته بذلك المقام عمر بن الخطاب، وقال فيما قال: بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة(٢)

أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالأمر الإلهي الذي نزل عليه بإمامة الإمام علي رضي الله عنه لهم، وكرر ذلك ثلاثًا كما تذكر أدبيات الشيعة، لكن الملفت للنظر أن المخيلة الشيعيَّة لم تكتف بذلك، بل

١) المرجع السابق: ص ١٤

٢) أبي الفضل بن الحسن الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٧٠ ، ص: ١٣٢ : ١٣٣

زعمت أن الله هدد الرسول صلى الله عليه وسلم، إن تقاعس عن الإخبار بتكليف الإمام علي، وهنا نتساءل هل كان بإمكان الرسول صلى الله عليه وسلم إخفاء الأمر الإلهي؟ لقد ابتدعت الشيعة هذه الفكرة؛ لتقول بأن هناك من كشفهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم يسعون لتعطيل الأمر الإلهي، لذلك كان التهديد ليس للنبي عليه الصلاة والسلام، إنما هو تهديد للمخالفين، وإقرار بما في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من مخاوف على آل بيته من طغاة الأمة.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة٦٧) تفسر المخيلة الشيعيَّة هذه الآية الكريمة بوصفها آية نزلت " في حجة الوداع، لتؤكد على لزوم تبليغ النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) ما أمر به للأمة، وولاية عليّ عليه الصلاة والسلام على الناس، ... وقد يرى البعض أن هذه الآية تضمنت تهديدًا للرسول نفسه بالعذاب والعقاب، إن لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وفي بعض الروايات: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قد ذكر ذلك في خطبته للناس يوم الغدير ... لكننا نقول إن التهديد الحقيقي موجه لفئات من الناس كان يخشاها الرسول، كما صرح هو نفسه (صلى الله عليه وآله سلم) بذلك، ولم يكن النبي ممتنعًا عن الإبلاغ ولكنَّه كان ممنوعًا منه، فالتهديد – إن كان – فإنما من باب (إياك أعني، واسمعي يا جارة)[1]

بدأت فكرة التأسيس للمظلومية واضحة في تفسيرات المخيلة الشيعيَّة لحادثة الغدير، فمن وجهة نظرهم، كان الغدير تنصيبًا حقيقيًا بأمر إلهي للإمام علي، وكذلك كان تنبيهًا للظلم الذي سيقع عليه؛ حتى أن النبي من وجهة نظرهم، كان ممنوعًا من الإبلاغ خشية ما سيحدث مستقبلًا، لكن

١) المرجع السابق: ص ١٥ : ١٦

المولى عز وجل أجبره على تبليغ الأمر الإلهي، دون الالتفات للعواقب، فكله أمر الله.

من خلال فهم الشيعة لحادثة الغدير، وإقرار الإمامة في آل البيت، راحت المخيلة الشيعيَّة النخبوية تأسس لاستعمار وعي عموم الشيعة، من خلال تأكيد فكرة المظلومية، التي تنبأ بها القرآن الكريم، وكاد أن يصرح بها الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه المظلومية هي التي دفعت الرسول للتردد – حاشا لله – في إخبار الأمة بالأمر الإلهي، لذلك نزلت الآية الكريمة للتأكيد على التزامه بما أخبره الله به.

بات من المؤكد أن من يسمع ويقرأ من الشيعة تلك التفسيرات سيشعر لا محالة بحالة من الحزن والألم والغضب، تؤثر في وجدانه؛ فيبدأ في التعاطف الشديد مع آل البيت، ومن ثم الاقتناع بأحقيتهم في الإمامة، والإقرار بوقوع المظلومية عليهم، التي يجب أن يعرفها الجميع، ويسعى عموم الشيعة لرفعها عنهم، ورد الحق لهم.

" ولكنّ قضية الغدير رغم مرور الدهور والأحقاب، وبعد ألف وأربعمائة عام زاخرة بالتقلبات العجيبة وبالقضايا الغريبة، ومشحونة بالحروب والكوارث، وبالعجيب من القضايا والحوادث... وكذلك رغم ما عاناه ويعانيه المهتمون بها، من اضطهاد وغربة وتشريد، ومحنة، وما يصب على رؤوسهم من بلايا ومصائب وكوارث ونوائب[١]

إن الوصف السابق لتاريخ حادثة الغدير وحال المقرين بما فيها، يُقرُّ بما سعت المخيلة الشيعيَّة لإقراره، بوصفها حقيقة لا تقبل الجدال، وكذلك السعي إلى استعمار وعي النخبة الشيعيَّة لمواطنيها، ودفعهم لتلقينها لأبنائهم جيلًا بعد جيل.

١) السابق ص ١٩ : ٢٠

إن ما سبق يؤكد لنا أن المظلومية رغم أنها ليست أصلا من أصول المذهب الشيعي، لكنّها تُعد من وجهة نظر الدراسة أصلا خفيًا، شعبويًا، سعت النخبة الشيعيَّة؛ لترسيخه في عقول أبنائها من أجل التمكُّن من تحريكهم، والاصطفاف معهم، والدفاع عن معتقدات المخيلة الشيعيَّة، وهذا ما حفظ المذهب الشيعي الاثنى عشري، وأسهم بصورة كبيرة في انسياق الرعية الشيعة لفقهائهم بصورة تبدو غريبة في عقولنا في العصر الحديث والمعاصر.

" إن حادثة الغدير هي المفتاح للباب الذي لا بد من الدخول منه لحل المشاكل المستعصية الكبرى، وبعث وبناء الإسلام وقوته وحيويته، وبدون ذلك؛ فإن على الجميع أن يستعدوا للمزيد من المصائب، وأن يقبلوا – شاءوا أم أبوا – باستمرار حالة الضعف والتقهقر، بل وانهيار الإسلام الشامخ[1]

هذا النص السابق يؤكد مدى تغلغل المظلومية المنبثقة من حادثة الغدير في وجدانهم، عقولهم، مخيلتهم؛ حتى أنهم ربطوا بينهما (الغدير – المظلومية) وبين انهيار الإسلام الشامخ، حال التغاضي عنهما، أو نسيانهما.

(٢)

تخلق المظلومية تعاطفًا كبيرًا لدى عموم البشر، وكانت المخيلة الشيعيَّة تعي هذا، وتؤسس له، فالحق دون وقوع ظلم عليه، قد يغيب وينحسر تدريجيًا بمرور الزمن، لكن بوجود مظلومية، تتجدد بمرور الزمن، أو يجددها القائمون عليها، ستجعل الحق حاضرًا في كل لحظة، لذلك بدا واضحًا أن المخيلة الشيعيَّة تسعى للتأسيس للمظلومية، قبل إعلان المطالبة بالإمامة للائمة المعصومين، لذلك تجد كتبهم تذكر القصص الكثيرة التي تؤكد المظلومية، وتؤسس لها، بوصفها جريمة منظمة في حق آل البيت من أجل سرقة حقوقهم، التنكيل بهم.

---

١) السابق: ص ٢١

استطاع الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما سلب الخلافة من الإمام علي رضي الله عنه، ومنعه من حقه الإلهي المنصوص عليه في الحديث الشريف – وفق أدبيات الشيعة– في حادثة الغدير، لكنهما لم يكتفيا بذلك، فتذهب الأدبيات الشيعيَّة إلى مخاطبة الوجدان المقدس للناس، وتشير إلى أنهما عقب حادثة السقيفة وسلب الإمامة من صاحبها، سعوا في التنكيل بالمعصومين وعلى رأسهم السيدة فاطمة رضي الله عنها، فيذكرون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سعى في إيذاء السيدة فاطمة، واعتدى عليها، وأصابها إصابات أقعدتها في فراشها؛ حتى توفيت متأثرة بتلك الإصابات[١] من الواضح أن من كان يؤسس لمظلومية الشيعة، كان على وعي تام بالعقلية العربية خاصة والشرقية عامة، فالمرأة لها قداسة خاصة لدى هذه الشعوب، والاعتداء عليها، يعد عارًا يلحق بالمعتدي؛ لذلك اختلقت المخيلة الشيعيَّة قصة الاعتداء على السيدة فاطمة، بوصفها امرأة لها قداسة المرأة، وفي نفس الوقت هي بنت رسول الله المعصومة، صاحبة القداسة، فعندما يتم الاعتداء عليها يصبح هذا أمرًا خطيرًا، يوغر الصدور، ويشحذ الهمم للانتقام والثأر من منعدمي النخوة والرجولة، سارقي الحق الإلهي.

كانت هذه بدايات التأسيس للمظلومية المتُدِّرجة، لقد كانت المخيلة الشيعيَّة تتدرج في خلق فكرة المظلومية، وكانت تفتش في حياة السيدة فاطمة والإمام عليّ عمّا يصلح مظلومية، لا تُنسى بمرور الوقت، ويستطيع صاحب الفكرة الإضافة عليها من وقت لآخر.

لم يتوقف ظلم الشيخين للسيدة فاطمة، فبرغم سرقة حقها في إمامة زوجها وأبنائها، اعتدوا عليها، وأحدثوا بها إصابات قاتلة، ولأنهم موغلون في الظلم والقهر لآل البيت، حرموا السيدة فاطمة من ميراثها في أبيها النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الميراث بعيد عن فكرة الإمامة، فلماذا يُمنع

---

١) انظر في ذلك: أب منصور أحمد بن علي بان أبي طالب الطبرسي: الاحتجاج، انتشارات الشـــريف الرضي، إيران، ط١، ١٣٨٠ هــ ج١، ص: ١٠٩

عنها؟ لا يوجد مبرر لدى المخيلة الشيعيَّة سوى خلق فكرة المظلومية المطلقة، فالقوم قد أجمعوا على ادعاء التنكيل بآل البيت، دون وجود مبررات عقلية لذلك، غير خلق المظلومية المؤسسة للمطالبة بالحق في الإمامة مهما تباعدت السنون والقرون.

منع أبو بكر الصديق السيدة فاطمة أرض فداك أو فدك، بحجة أن الأنبياء لا يورثون، فذهبت السيدة فاطمة بنفسها إليه " وقالت لمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وأخرجت وكيلي من فدك، وقد جعلها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأمر الله تعالى فقال هاتي على ذلك بشهود، فجاءت بأم أيمن، فقالت له أم أيمن: لا أشهد يا أبا بكر حتى أحتج عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أُنشدك بالله ألست تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أم أيمن امرأة من أهل الجنة؟ فقال: بلى، قالت: أشهد أن الله أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، " وآت ذي القربي حقه" فجعل فدكًا لها طعمة بأمر الله، فجاء عليٌّ عليه السلام، فشهد بمثل ذلك؛ فكتب لها كتابًا، ودفعه إليها، فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: إن فاطمة ادعت في فدك وشهدت لها أم أيمن وعليّ؛ فكتبته لها. فأخذ عمر الكتاب من فاطمة، فتفل فيه، ومزقه، فخرجت فاطمة عليها السلام تبكي. [١]

لم يكتف القوم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسلب الإمامة، والميراث من السيدة فاطمة، بل تمادوا في التنكيل بها، وإهانتها إهانة بالغة[٢] " فأخذ عمر الكتاب من فاطمة، فتفل فيه" إن فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعل يدل على مدى الاستهانة بالسيدة فاطمة،

---

١) المرجع السابق، ص: ١١٧ : ١١٨

٢) لا تناقش الباحث الروايات الشيعية المختلقة من أجل إثارة العواطف المشاعر الشيعية من أجل نصرة آل البيت، وتكتفي بعرضها للتأكيد على فكرة المظلومية فقط، فمناقشة كذب تلك الروايات والحكايات وفق التاريخ والتناقض الموجود فيها، يخرج البحث عن نطاقه وخطته المحددة. (الباحثة)

والتحقير من شأنها، وهذا يبعث على كراهية الرجل كراهية شديدة، فكيف لصحابي أن يفعل ذلك ببنت رسول الله، الذي جعل من رعاة الغنم الغلاظ سادة وأمراء، إنها المظلومية، أو خلق المظلومية؛ التي تؤسس للاحتشاد من أجل نصرة آل البيت والأئمة المعصومين المظلومين.

ذكرتُ من قبل أن المخيلة النخبوية الشيعيَّة التي خلقت المظلومية، كانت على وعي تام بالمخيلة العربية والشرقية؛ لذلك تدرَّجت في اختلاق الأحداث المؤسسة للمظلومية؛ حتى تتلاقى مع منطقية العقلية العربية والشرقية، ومن ثم تصدقها، وتؤمن بها؛ فبعد الاعتداء على السيدة فاطمة رضي الله عنها عقب السقيفة، ومنعها ميراثها وإهانتها، كان لا بد أن يظهر دور الإمام علي رضي الله عنه في نصرة زوجته، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى أبي بكر محتجًا احتجاجًا شديدًا، وأغلظ له القول، وأثار حفيظة الحضور ضده، " فبعث أبو بكر إلى عمر فدعاه ثم قال له: أما رأيت مجلس عليّ منّا اليوم؟ والله لئن قعد مقعدًا آخر مثله؛ ليفسدن علينا أمرنا، فما الرأي؟ فقال عمر: الرأي أن تأمر بقتله، قال: فمن يقتله؟ قال: خالد بن الوليد، فبعثوا خالدًا فأتاهما، فقالا: إنا نريد أن نحملك على أمر عظيم، فقال: احملاني على ما شئتما، ولو قتل عليّ بن أبي طالب، قال: فهو ذلك[١]

كان التربص بآل البيت قويًا، والنية مبيَّتة لدى الجميع للخلاص من الإمام علي وآله؛ حتى لا يتحقق الأمر الإلهي، لقد كان أبو بكر وعمر – وفق المخيلة الشيعيَّة – رأس التآمر على آل البيت، ورفض تنفيذ أمر الله، الطريف أن الجميع يُفكر في نفس الأمر، فخالد بن الوليد عندما يرسلان له؛ لتنفيذ خطة قتل الإمام علي؛ نجده يتوقعها، قبل أن يخبر بها، بل ويبادر من نفسه قائلا " احملاني على ما شئتما، ولو قتل عليّ بن أبي طالب" إن النية

١) المرجع السابق: ص ١٢٠ : ١٢١

مبيتة، ومعاداة الله ورسوله والأئمة حاضرة في القلوب الحاقدة، التي تسعى لتنفيذ المخططات الخبيثة.

بنظرة علمية دقيقة لما تذكره المخيلة الشيعيَّة في كتبها، وبتكرار روايات متعددة، وجدنا أنهم يتعاملون بمنطق علم الخطاب المعاصر، أو وفق مهارات الاتصال الدقيقة، فهناك مرسل على وعي بمقصده وهدفه، وعلى وعي تام بالعقلية التي يخاطبها، وهناك رسالة منظمة، تعزف على أوتار الوجدان والحماسة، ولم تغفل كذلك العصبية القبلية (في الخطاب للعرب وللقرشيين تحديدًا) والعصبية الأممية (في الخطاب للوجدان الفارسي الذي صاهر آل البيت)، وهناك مُستقبِل قد تمت دراسة ثقافته، فكره، عقليته؛ حتى يتمكن المرسل من خلال رسالته من توجيهه، وخلق التغذية المرتدة التي تخلق تساؤلات تصب كلها في مصلحة آل البيت، وضرورة نصرتهم، والانتقام لهم ورفع الظلم عنهم.

(٣)

كنت قد ذكرت من قبل أن المظلومية كانت خطابًا فكريًا موجهًا إلى المخيلة العربية والشرقية بهدف التأثير فيه، ودفعها إلى تصديق كل ما يقال عن الظلم الواقع على الإمام علي وأبنائه، – هذا الظلم لا يستطيع أحد أن ينكره – لا بهدف التأكيد على حقائق تاريخية حدثت، ومن الضروري كشفها للإمة؛ حتى نتعلم من تاريخنا، ونستفيد منه، إنما بهدف خلق المظلومية، وترسيخها بهدف تكوين حشود كبيرة؛ تؤمن بإمامة الإمام علي وأبنائه دون كل المسلمين، بوصفهم مصطفين من الله عز وجل ومختارين لها، ولأن الحدث المؤسس لمفهوم الإمامة واصطفاء الله لهم كان حادثة الغدير، سنجد المخيلة النخبوية الشيعيَّة المؤسسة لفكرة المظلومية، تذكر الحادثة كثيرًا، وتستشهد بها في كل حادثة كبرت أو صغرت بهدف التأكيد على الحق المعلوم المسلوب من قبل الظالمين، الذين عصوا أمر المولى عز وجل.

إن المخيلة الشيعيَّة تشير كذلك إلى أن الرسول على الصلاة والسلام

كان في نفسه شيء من هذا الأمر، وتردد في طرحه على المسلمين؛ خوفًا من أولئك العصاة الظالمين، المتربصين بآل بيته، كانت كل هذا الإشارات تأسيسًا للطرح الفلسفي للمظلومية، فالمظلومية في الفكر الشيعي هي فلسفة حياة لأمة، أسسوا لها عبر العقل الجمعي للمجتمعات، ومن خلال التمكين من الوجدان الشعبي للمناصرين لآل البيت، أو المظلومين من الحكم الأموي العربي للموالي، الذين انخرطوا في الدولة الإسلامية، لكنهم عوملوا معاملة مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة، لقد كان المؤسس الفلسفي للمظلومية على وعي تام بتاريخ الحقبة التي كان يؤسس لها، مؤمن بفكرة إن لكل حقبة ثقافة خاصة، يصنعها المتمكنون من الأمر الساعون لخلق سيادة قوية لهم.

كان وعي المخيلة الشيعيَّة حاضرًا في كل الأحداث التاريخية، لذلك لم يبالغ في كل الأحداث ولم يضع بصمته في الحوادث الشهيرة المسجلة في كل كتب التاريخ، التي تحقق فيها الظلم واقعًا ورآها الناس بعيونهم، لذلك جاء سرده التاريخي للصراع بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قريبًا مما سلجته كتب أهل السنة، ويعد هذا نوعًا من الذكاء والوعي بالعقلية الموجه لها خطاب المظلومية، فهو في مثل هذه الأحداث لم يتدخل؛ لأن الحقيقة واضحة، وانتزاع الحكم من الإمام علي كان واضحًا للجميع، فلو تدخل وزيَّف أو اختلق أحداثًا غير معروفة عُدّ هذا نقيصة قد تؤثر في مصداقية المظلومية ورؤيتها، لذلك كان يعمد إلى أحداث هامشية وغير مؤثرة في الحدث التاريخي، ليتخذها حجة دامغة على المظلومية، فأثناء الصراع حول الحكم، عمد إلى استعادة حادثة الغدير، ومناشدات – على حد تعبيرهم – الإمام علي للمسلمين للاعتراف بحادثة الغدير.

فتحت عنوان من أصابتهم الدعوة بإخفاء حادثة الغدير، راح المؤسس لفلسفة المظلومية يخاطب الوجدان الذي قد يدفعه التساؤل لماذا لم يتدخل الله لنصرة من اختارهم؟ تأتي الإجابة على التساؤلات المفترضة من خلال هذا الباب المعنون بمن أصابتهم الدعوة، فهم راحوا يؤكدون أن الله عز وجل

اختار الإمام علي وأبنائه، وأمر نبيه بإخبار المسلمين بذلك، ثم راح يقيم الحجة عليهم؛ ليؤكد طغيانهم، ورفضهم للإمامة؛ ويتركهم في غيهم، يختارون أفعالهم؛ حتى يأخذهم في موعد معلوم، وهذا الموعد هو الذي حددته المخيلة الشيعيَّة بالعودة الكبرى، التي سيُقتص منهم عند حدوثها.

إننا أمام خطاب محكم، مدروس بعناية، ومخطط له بدقة شديدة." وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين إن عدة من الصحابة والتابعين والمحدثين، كانوا منحرفين من علي عليه السلام، قائلين فيه السوء، ومنهم من كتم مناقبه، وأعان أعداءه ميلًا مع الدنيا، وإيثارًا للعاجلة، فمنهم أنس بن مالك، ناشد عليٌّ عليه السلام في رحبة القصر، أو قالوا برحبة الجامع بالكوفة، أيكمّ سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، فقام اثنا عشر رجلًا؛ فشهدوا بها، وأنس بن مالك في القوم، لم يقم، فقال له يا أنس! ما يمنعك أن تقوم فتشهد، ولقد حضرتها، فقال: يا أمير المؤمنين! كبرت ونسيت، فقال: اللهم إن كان كاذبًا فارمه ببضاء، لا تواريها العمامة، قال طلحة بن عمير: فو الله لقد رأيت الوضح به بعد ذلك أبيض في عينيه، وروى عثمان بن مطرف، إن رجلًا سأل أنس بن مالك في آخر عمره، عن عليّ بن أبي طالب؟ فقال إني آليت أن لا أكتم حديثًا في علي بعد يوم الرحبة، ذاك رأس المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم(١)

إن القصة المذكورة التي لا أناقش صحتها من كذبها؛ إنما أقف على خطابها الموجَّه، الذي يريد أن يؤكد من خلال رسالته أن الله أراد أن يقيم الحجة على المعاصرين للإمام عليّ بن أبي طالب، ويخبرهم عبر رسله الدنيوية أن الإمام عليًّا على حق، وهو المصطفى وليًا من عند الله عز وجل،

١) عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنة والأدب: الأعلمي، لبنان، ١٩٩٤، ص: ٢٣٦: ٢٣٧

فأطيعوه؛ حتى لا تخسروا في الآخرة، فمنهم من وعي الخطاب الإلهي من خلال الحجة القاطعة، التي ظهرت كما في موقف أنس بن مالك، الذي أخذته الدنيا، فأنكر حق الإمام عليّ في الإمامة فدعى عليه الإمام عليّ؛ فأصابه سهم الدعاء، ففطن إلى حاله وأقر بخطئه، لذلك قال في آخر عمره كما ذكر النص السابق " آليت أن لا أكتم حديثًا في علي بعد يوم الرحبة، ذاك رأس المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم"، الحجة قائمة على الجميع وكرامات الإمام حاضرة تُخرس الألسنة، وتُؤكد أنهم لا يحتاجون لحجة تقيم الحق، فكل شيء واضح للجميع، لكنَّهم مثل قوم عاد وثمود، وأصحاب السبت، يعرفون الباطل، ويصرون علي الإتيان به، فالحجج قاطعة بإمامة علي لكنهم يكذبون، ويستمرون في ظلمهم للإمام وأبنائه، رغم كل ما كان يحدث أمام أعينهم : فهم يروون في كتبهم أن الإمام عليًّا " سأل رجلًا في الرحبة من حديث فكذَّبه، فقال عليٌّ: إنك قد كذّبتني، فقال ما كذَّبتك، فقال: أدعو الله عليك إن كنت كذّبتني أن يعمي بصرك، قال: ادع الله ، فدعا عليه فلم يخرج من الرحبة؛ حتى قُبض بصره[١]

الإصرار على الظلم للإمام عليّ هو الذي سيخلق رؤية المظلومية في وجدان الرعية، فكان لزامًا من التأكيد عليها، وأن الظلم وقع على الإمام حيًا وميتًا، من الصغير والكبير، فلا فرق، لقد كان هناك إصرار كبير على اتباع خطوات الشيطان في معصية الإمام، وبهذه الصورة " صورة المظلومية " تتقارب صورة الإمام علي رضي الله عنه – عند الشيعة الاثنى عشرية – من صورة المسيح عليه السلام، فكما كان هناك إصرار على الكفر بالمسيح، رغم المعجزات الكبرى، التي تؤكد للجميع نبوته؛ فإنهم عصوه، وكفروا به، وسعوا في صلبه، لولا أن أنجاه الله برفعه إلى السماء، هكذا بدت صورة الإمام علي رضي الله عنه في مخيلة الشيعة الاثنى عشرية، كصورة

---

١) المرجع السابق ص: ٢٣٨

المسيح، أثبت حق ولايته بكل الصور والكرامات، وربما المعجزات، لكنَّ الشيطان أعمى بصائر القرشيين؛ فجحدوا حقه، وحق أبنائه، وسعوا في قتله وآل بيته، كما سعى الظالمون من قبل في صلب المسيح عليه السلام[١]

إن المخيلة الشيعيَّة الاثنى عشرية قصدت عن وعي تام، وهي تخلق فلسفة المظلومية أن تتقارب من صورة سيدنا عيسى عليه السلام؛ لتنفي بعد ما سيتردد في مخيلة الناس أو عقولهم، لماذا لم يتدخل الله مباشرة لنصرة الإمام عليّ، وهو الذي اصطفاه؟ وعندما يتبادر هذا السؤال إلى ذهن الناس؛ ستكون صورة المسيح حاضرة؛ لتردهم مرة أخرى إلى التسليم بإرادة الله، الذي منح صفيه كل الحجج، والأدلة والكرامات، لكنَّ القوم استكبروا، ورفضوا الإقرار بأمر الله، فحقّ عليهم العذاب، وكما سيعود المسيح المخلِّص إلى الكون مرة أخرى، سيعود المهدى المنتظر الإمام المختفي؛ ليقيم العدل وينتصر للمظلومين من الظالمين.

(٤)

قدمّت الدولة الأموية في عهد يزيد بن معاوية خدمة جليلة تُعد الخدمة الكبرى للفكر الشيعي عامة، والاثنى عشري خاصة، عندما قامت بالجريمة الإنسانية ضد الحسين بن عليّ رضي الله عنه، فهذه الجريمة هي التي غيّرت العالم الإسلامي مبكرًا، وقسَّمته فعليًا، وخلقت بداخله بذور الدموية والصراع، الذي لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا، فهذه الجريمة لم تؤذ الشيعة بقدر ما آذت المسلمين عمومًا، بكل مذاهبهم واختلافاتهم؛ لأنها بحق كانت جريمة ضد الإنسانية.

يعُد استشهاد الحسين بن علي مظلومية كبرى عند الشيعة الاثنى عشرية، فلقد تلقفوها بنظرة فلسفية عميقة، استطاعت أن تؤسس للمظلومية

---

١) راجع في ذلك: محمد باقر المجلسي ، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء بيروت – لبنان ج ، ٧٥ ص: ٢٨٣، ٣٠٦

التاريخية، التي صاروا يتحركون بها طيلة تاريخهم القديم والحديث والمعاصر، لقد لعبت هذه المظلومية الكبرى دورًا كبيرًا في تأسيس الممالك الشيعيَّة، فلولا تلك المظلومية ما رأينا الممالك الشيعيَّة، تتنقل من بلد إلى بلد حتى انتهت بالدولة الصفوية في إيران، ثم بإيران الحالية، فهذه المظلومية هي التي غذَّت روح الثورة والمطالبة بخلق نظام حكم يكون مواليًا للأئمة آل البيت.

(أ)

مظلومية الحسين رضي الله عنه تُعد هي الباعث الحقيقي وحجر الأساس في المظلومية الشيعيَّة؛ لأنها تستمد وجودها من حدثٍ فارقٍ في التاريخ الإسلامي، وكذلك من إرهاصات تناولت مقتل الحسين رضي الله عنه في أرض بابل، فتذكر المصادر الشيعيَّة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في سفر له" فوقف في بعض الطريق واسترجع، ودمعت عيناه، فسئل عن ذلك، فقال: هذا جبرائيل عليه السلام، يخبرني عن أرض بشط الفرات يقال لها كربلاء، يقتل عليها ولدي الحسين ابن فاطمة عليهما السلام، فقيل له: من يقتله يا رسول الله؟ فقال: رجل اسمه يزيد لعنه الله، وكأني أنظر إلى مصرعه ومدفنه[١] كان هذا الإرهاص تأسيسًا لفلسفة المظلومية، التي قصدت المخيلة الشيعيَّة خلقها، والتأكيد عليها، من أجل بناء رؤيتها في الحكم والإمامة، فبات الكل يعلم مسبقًا بمظلومية الحسين، لكن الجموع تخاذلت عن نُصرته، أو إقامة الحجة على البغاة، واكتفوا بالمشاهدة والخذلان، فتقول المخيلة الشيعيَّة: ثم رجع من سفره هذا مغمومًا؛ فصعد المنبر؛ فخطب ووعظ، والحسن والحسين عليهما السلام بين يديه، فلما فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسن، ويده اليسرى على رأس الحسين، ثم

١) السيد علي بن موسى بن طاووس، مقتل الحسين عليه السلام المسمى باللهوف في قتلى الطفوف، مؤسسة الأعلمي ، بيروت، لبنان ط١، ١٤١٤- ١٩٩٣م، ص:١٤

رفع رأسه إلى السماء وقال: (اللهم إن محمدًا عبدك ونبيك، وهذا أطائب عترتي، وخيار ذريتي وأرومتي، ومن أخلفهما في أمتى، وقد أخبرني جبرائيل عليه السلام أن ولدي هذا مقتول مخذول، اللهم فبارك له في قتله، واجعله من سادات الشهداء، اللهم لا تبارك في قاتله وخاذله[1] يسعى الحديث المذكور للتأسيس لمظلومية حقيقية، تشبه تراجيديا ستُمثَّل على خشبة المسرح، وينبغي أن نهيأ المشاهدين للتفاعل مع ما سيعرض، فالحديث يذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا بمباركة قتل الحسين، لم يحاول أن يدعو الله لحفيده أن ينجيه، أو ينصره على الظالم " يزيد" الذي ذكره اسمًا، وكأن المخيلة الشيعيَّة تريد أن تؤكد أن ذلك قضاء الله، الذي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه واجب الحدوث، ولا شفاعة فيه؛ لأنه يؤسس لمظلومية الإمامة التي يريدها الله لإقامة الحجة على الظالمين، ويقتص منهم عند الرجعة الكبرى للأئمة، لقد كانت المخيلة الشيعية تعي خطابها جيدًا، وتطوره، وتٌعمِّقه وفق مقتضيات الحدث، ووفق ظروف الحقبة والسلطة الحاكمة.

وفي سياق الحديث نفسه يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم خذلان الناس لحفيده فيقول لهم وهم يبكون من كلامه: أتبكونه ولا تنصرونه[2]

كانت هذه نبوءة جد الحسين بما سيحدث له، فهل الإمام الثالث كان يعرف بمقتله؟ وفق الحديث السابق كان يعلم من نبوءة جده، لكن الرؤية الفلسفية للمظلومية، لم تكتف بهذا، فكيف لولي اختاره الله للولاية والإمامة، ولا يخبره الله عز وجل بما سيحدث له، فالروايات تذكر أن النبي يوسف عليه السلام قد أُخبر بموقف إخوته منه، وأنه سيلقى في الجب، فلماذا لا يُطلع الله إمامه على مصيره وهو بمنزلة النبي أو يفوقها – وفق الفلسفة

---

١) المرجع السابق: ص ١٤

٢) السابق : ص ١٥

الشيعيَّة الاثنى عشرية– لذلك تذكر المخيلة الشيعيَّة في كتاب اللهوف أنّ الإمام الحسين (ع) قبل أن يغادر المدينة رأى جدّه رسول الله (ص) في المنام وأخبره فيه: "أنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً ." قال الراوي: وجلس الحسين عليه السلام؛ فرقد ثم استيقظ، فقال: يا أختاه إني رأيت الساعة جدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأبي عليًا، وأمي فاطمة الزهراء وأخي الحسن، وهم يقولون يا حسين إنك رائح إلينا عن قريب، وفي بعض الروايات غدًا[١]

وفق أدبيات الشيعة الاثنى عشرية كان الإمام الحسين رضي الله عنه يعرف بمقتله، فلقد وصله من أكثر من مصدر، كان المصدر الأول هو نبوءة جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمصدر الثاني هو نفسه، فلقد رأى في المنام ذلك، فهل كان عليه أن يستسلم لمصيره؟ وفق المرويات الشيعيَّة كان لزامًا على الإمام الذي اختاره الله أن يُظهر شجاعته، وأن يقف شامخاً قويًا منتظرًا قضاء الله، فلا يُعقل أن يجبن الإمام أو يخور أو يستسلم للقتل؛ لذلك أظهرته المخيلة الشيعيَّة في صورة المقاتل الشرس، الذي يعرف مصيره، ويسعى إليه بقوة؛ لأنه أمر الله، وناموس حكم الأئمة للكون، فتذكر مرويات الشيعة الاثنى عشرية على لسان جعفر الصادق، تقول: روي عن مولانا الصادق عليه السلام أنه قال: سمعت أبي يقول لما التقى الحسين عليه السلام وعمر بن سعد(لع) وقامت الحرب أنزل الله تعالى النصر، حتى رفرف على رأس الحسين عليه السلام، ثم خُيِّر بين النصر على أعدائه وبين لقاء الله فاختار لقاء الله، رواها أبو طاهر محمد بن علي النرسي في كتاب معالم الدين[٢]

---

١) السابق ص ٥٥

٢) السابق ص ٦١

رُسمت المظلومية وفق خطاب سياسي محكم، بعقلية حضارية، استفادت من تراثها العقدي والديني القديم، بل لا أكون مبالغة إن ذكرت أنها أفادت كذلك من العقلية الأدبية في بلاد فارس، التي هيأتها الظروف لخلق المظلومية، وخطابها النفس اجتماعي، والسياسي الذي بنى رؤيته الفلسفية على فكرة قداسة الأئمة، وسلب حقهم والتنكيل بهم، فمثل هذه الخطابات تؤثر في نفوس الرعية، وتخلق بداخلهم قوة كبيرة لمناصرة الضحية، ورد حقه، وهذا ما ساعد المخيلة الشيعيَّة في خلق مظلوميتها، ولعب يزيد بن معاوية دورًا مهمًا في مساعدة المخيلة الشيعيَّة لبناء فلسفة المظلومية، فلولا جريمة كربلاء لما استطاعت المخيلة الشيعيَّة أن تمتلك الحجة الدامغة والتأسيس الفلسفي والعقدي لمفهوم المظلومية الفاعل في خلق التعاطف العام، لقد جاءت جريمة استشهاد الحسين؛ لتكون فاتحة التأسيس الحقيقي لفكر الشيعة الاثنى عشرية، ففي ظل اضطهاد آل البيت، كان الموالي من أصول فارسية يعانون معاناة شديدة من معاملة الدولة الأموية لهم، مما دفعهم للشعور بمظلومية نفسية أممية، كانت تبحث في محيطها عن المخلّص الذي ينتمون إليه، وينضون تحت لوائه؛ كي ينصره، ويرفع الظلم عنهم، في تلك الأثناء جاءت حادثة كربلاء؛ ليلتف كل المظلومين من الموالي الفرس حول آل البيت، مناصرين وداعمين لهم ولحقهم في الحكم، ورفع الظلم عنهم، ولعب الشعور بالظلم دورًا رئيسًا في انضواء الموالي تحت لواء نصرة آل البيت، وكذلك لعبت فكرة العصبية الأممية دورًا واضحًا في انضواء الفرس لآل البيت نظرًا لمصاهرة الحسين رضي الله عنه لهم، في زواجه – كما تذكر بعض كتب التاريخ – من شهر بانو بنت كسرى يزدجرد الساساني، وبهذا تحققت الدافعية الكبرى للتشيع لآل البيت في صورته الأولى، قبل التحول إلى رؤية فلسفة المظلومية، التي تؤسس للحكم، والسيادة والعصمة.

(ب)

تم التأسيس لفلسفة المظلومية المنبثقة من أصل الإمامة في الفكر الشيعي الاثنى عشري، وبعد أن ساعدتهم الظروف التاريخية على خلق فلسفة خاصة بالمظلومية، سعوا إلى نشر هذه الفلسفة، نشرًا عامًا، عبر ترديدها في كل المجالس وفي كل البلدان، لكنَّ هذا لم يكن كافيًا، فلقد كانت فلسفتهم في صناعة الخطاب أكبر من مجرد الدعاية أو النشر في البلدان والأصقاع، كان هدفهم تحويل فلسفتهم إلى عقيدة متكاملة، يتم اعتناقها والإيمان بها إيمانًا قويًا لا يقبل الشك أو التراجع؛ لذلك فكروا في التربية على فلسفة المظلومية، فبدأوا في ترديد قصص الغدير والظلم الواقع على آل البيت في كل بيت، وكلَّفوا كل رب أسرة أو ربة أسرة بتلقين الأبناء والأحفاد لقصص الظلم الواقع على أئمتهم؛ ليصير هذا وعيًا ثابتًا، هو الذي يؤسس لأسلوب التفكير بصفة عامة، لقد كان منشئو خطاب المظلومية على وعي بما يصنعون؛ لذلك خططوا لاستعمار الوعي منذ الصغر؛ ليتحول الطفل ويتشكل على حقائق ثابتة، هي التي توجهه بصفة عامة؛ لتكون المظلومية طريق حياة، وأسلوبًا ومنهجًا، فكل شاب يكبر يشعر بمظلوميتين، مظلومية كبرى وهي المظلومية العامة التي وقعت على آل البيت أئمته المعروفين، ومظلومية صغرى، وهي شعوره الذاتي بالألم والظلم، وأن طريقه محفوف بالظلم من كل جانب، فهو مناصر الأئمة، ومريديهم، وطريقهم طريقه، لذلك فعليه أن يرفض كل من حوله، ويتوجس منهم، ويتربص بهم؛ لأنهم من خذل الأئمة أو ظلمهم، وهذا ما جعل الصراع القائم حاليًا بين إيران والعرب من حولها صراعًا عقديًا ومنهجًا وجوديًا، فالأمر تجاوز الخلاف الديني أو المذهبي، وصار العداء مؤسسًا على الوجود، فهو صراع وجودي، من يكون، الظالم أم المظلوم؟.

المبحث الثالث

الاحتفالات وخلق الوعي الجمعي لفلسفة للمظلومية

(١)

عيد الغدير

حادثة الغدير حادثة شهيرة في كتب السنة والشيعة وسبق الحديث عنها، لكنّ الإشارة الآن تعود إلى فكرة التربية على أفكار المظلومية، والتأكيد عليها من أجل تنشئة الأجيال على الإيمان بفكر الاثنى عشرية، لقد كان يوم الغدير الذي اتخذه الشيعة عيدًا مهما لهم، يعد يوم النصرة على جبروت الكفر والحقد كما يقولون، فابن طاووس واصفًا اليوم أو مؤسسًا لفلسفته قول" فإذا كان الحال كما ذكرناه من الحاسدين الكارهين لما أنزل الله ولما أمر به رسوله صلوات الله عليه وآله من ولاية علي بن أبي طالب على الإسلام والمسلمين، وكان ذلك في حياة النبي صلوات الله عليه وآله وهو يرجأ ويخاف والوحي ينزل عليه، فكيف يستبعد ممن كان بهذه الصفات في الحسد والعداوات أن يعزلوا الولاية عن مولانا عليّ عليه السلام بعد وفاة النبي صلوات الله عليه أو يكتموا كثيرًا من النصوص عليه[١]

يخاطب ابن طاووس مخيلة الأجيال القادمة، وكأنه يلقنهم ما يتعين عليهم تصديقه والإيمان به، إن الرجل يؤكد فلسفة المظلومية التي تُغرس في نفوس الأجيال من خلال ما يقول، ومن خلال التأسيس لفلسفة العيد، وأهدافه المعلنة، فابن طاووس يشير إلى قيمة اليوم، ولماذا يستحق الاحتفال، ولماذا يظل عيدًا مهمًا لهم؛ لأنه اليوم الذي انتصر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم على طواغيت العرب، الذين سعوا في رفض إمامة الأمام علي وأبنائه، إنه

١) السيد بن طاووس، إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، ط١، رجب ١٤١٤ هـ ج٢، ص ٢٥٢

خطاب إيديولوجي واضح، يبث فلسفة عيد الغدير، وطريق التربية النفسية، الوجدانية للأطفال والصبية، وتلقين الكبار بماذا يقولون للصبية.

تقرر المخيلة الشيعيَّة أن هذا العيد هو العيد العظيم لديهم، فهو عين نصرة الحق وإعلاء شرف الإمامة " فيما نذكره من فضل الله جل جلاله بعيد الغدير على سائر الأعياد، وما فيه من المنة على العباد[١] لو حاولنا قراءة الكلمات والتأكيد على كونه أفضل الأعياد علينا أن نبحث في الهدف المقصود من سن هذا اليوم للاحتفال به، إن المخيلة الشيعيَّة بنت تصورًا واضحًا ليوم الغدير، ففي هذا اليوم يستيقظ الكل للصلاة والاحتفال، ويسأل الأطفال أو يتم تلقينهم مباشرة، لماذا نحتفل بهذا العيد؟ ويجيب الأب أو الأم أو الفقيه الذي سيلقي خطبة العيد على مسامع المصلين، لتترسخ فكرة المظلومية، فهذا العيد تم سنه؛ لأن الله شرع فيه إمامة الإمام علي وأبنائه، ويأتي السؤال الفلسفي الأهم من قبل الأطفال والصبية، وهل هم يحكمون؟ فتكون الإجابة – منذ لحظة اتخاذ يوم الغدير عيدًا في زمن البويهيين – لقد حرمهم طغاة قريش من ذلك، لقد قاوموا بشدة إعلان الرسول إمامتهم، وتآمروا فيما بعد على اضطهادهم وحرمانهم منه، وقد تحقق لهم ذلك؛ لكن الله حتمًا سينصر أئمته يوم الرجعة الكبرى.

إن فلسفة المظلومية تتميز بمسرحتها؛ لتمثل على أرض الواقع بوصفه خشبة مسرح، ويكون المشاهدون من الأجيال التي ينبغي تلقينها، لتحمل رايات الدفاع عن المذهب، والإيمان الكامل والتسليم المطلق بمظلومية الأئمة.

وتكتمل الرؤية الفلسفية للمظلومية بربط المتلقي بالمشهد جيدًا، فهو شريك في كل ما حدث ويحدث، لذلك فعليهم أن يكونوا من الفائزين، الناجين، فمن لم يعرف إمامه، كمن خذله أو كفر بوجوده، إن " الاحسان لمن

١) المرجع السابق: ص ٢٥٢

ظفر بمعرفة الله جل جلاله ومعرفة رسوله صلوات الله عليه وإمام الزمان[١]، يؤكد خطاب المظلومية أن الفائز بالدنيا والآخرة هو العبد الذي يستطيع أن يعرف ثلاثيته المقدسة، الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام، والإمام، إنها ثلاثية لا تنفصم، ولا تتم إلا بالإيمان والمعرفة بالثالوث المقدس، هذا الثالثوث الذي يشير إلى التلاقي الفلسفي في الأديان، فالثالثوث الشيعي المقدس، يتشابه بشكل أو بآخر مع الثالثوث المسيحي، وربما يدفعنا هذا التشابه للتأكيد على التلاقي أو التخاطر الإنساني، الذي يخلق معتقداته برؤية قائمة على الخطيئة والمظلومية، وفكرة المخلّص التي تتمثل في صورة المسيح عند المسيحيين، والأئمة في المذهب الشيعي الاثنى عشري.

تتقارب صورة المظلومية على الاكتمال عبر التربية التي يمارسها الخطاب الشيعي موظفاً الاحتفالات " الأعياد المقدسة " وسيلة لغرس أفكار فلسفة المظلومية؛ ولتزداد صورة التربية عمقاً، ويبث الخطاب المظلومي أفكاره؛ ليؤكد أن الإنسان الذي يجهل إمامه يموت ميتة جاهلية " ورد أنه من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلي[٢] ولكي تنجو من تلك الميتة الجاهلية، جاء يوم الغدير أو عيد الغدير؛ ليخبرك بأئمتك المطهرين، الذي يجب عليك الاقتداء بهم، إن الخطاب الفلسفي للمظلوم يعزف على كافة المسلمات الإنسانية، المحفزة، المحببة، والمخيفة، عبر وسائل السعادة والاحتفالات "وهذا عيد يوم الغدير الثامن عشر من ذي الحجة، فيه كشف الله ورسوله عن واضح الحجة، ونص بها على من اختاره للإمامة والحجة[٣]

١) السابق ص٢٥٢
٢) السابق: ص ٢٥٢
٣) السابق: ص ٢٥٢

سعت فلسفة المظلومية إلى تأكيد ذاتها، فجعلت من يوم الغدير عيدًا يحتفل به عموم الشيعة، خاصة الاثنى عشرية؛ ليؤكدوا أحقية الإمام علي بالحكم، ويعلنون الأسباب المنطقية للعداء الشديد الذي لحقه من قبل القرشيين، لقد كانت المخيلة الشيعيَّة تعي خطابها، وتمهد له، وتسعى لترسيخه، والتأسيس له من خلال التدرج المنطقي في الاختيار من بين الأحداث التاريخية، فكل اختيار منهم كان مؤسسًا على رؤية واضحة، تهدف لترسيخ الهوية الاثنى عشرية، وعدم ذوبانها في المحيط الكبير الواسع من حولها، لذلك أسسوا لفلسفة المظلومية ولأعيادها، التي تعيد خلق الحوادث عبر الحكي والتمثيل المسرحي في الساحات والميادين والشوارع، بهدف التذكير وإعادة بعث الأفكار والفلسفات من جديد.

(٢)

كربلاء المظلومية الكبرى

وقعت المخيلة الشيعيَّة الاثنى عشرية أو العقل الشيعي السياسي عبر رحلة التشكل العقدي عبر التاريخ الإسلامي، في إشكالية حتمية الاختيار بين عدة نماذج مختلفة، النموذج الأول الثورة المطلقة ضد الحكم الأموي ومن بعده العباسي، أو المهادنة والمصالحة والتعايش مع الظرف التاريخي، أو خلق الظروف المناسبة من خلال شحذ الهمم والتدبير الخفي موظفًا كل الأدوات المتاحة لخلق تمرد أو ثورة كبرى، ترفع شعار المظلومية- رفع الظلم عن آل البيت ورد الحق الإلهي لهم - ، ليصبح هو النموذج السياسي الأساس والمُتبع، وتبنى المذهب الشيعي الاثنى عشري النموذج الأخير، ليكون المنهج السياسي الأمثل لهم، وجاءت جريمة كربلاء؛ لتُمكنهم مما يريدون، فلولا هذه الجريمة ما استطاع الاثنى عشرية بناء المظلومية الكبرى، التي خلقت تعاطفًا وانحيازًا كبيرًا لآل البيت بين السنة والشيعة مع الاختلاف في الأيديولوجيا التي وجهت هذا التعاطف.

نظر علماء الشيعة الاثني عشرية للأمر، بوصفه أمرًا إلهيًا غير قابل للنقاش أو التدبر أو التفكير، ولم يلتفتوا كثيرًا إلى الظروف التاريخية، التي صاحبت المواقف التاريخية، وظلوا يؤكدون أن الأئمة قد صدعوا بالأمر الإلهي، ونفذوه بغض النظر عن الملابسات المحيطة به، وعلينا – أقصد الشيعة الاثنى عشرية – الانصياع للأمر الإلهي، والاقتداء بالأئمة.

وفي هذا السياق نسبوا إلى الإمام جعفر الصادق قوله بأن «التقية هي تسعة أعشار الدين» وأنه «لا دين لمن لا تقية له[١] والتقية أسهمت بدور كبير في خلق المظلومية، فالمظلوم دومًا يتستر، ويخفي آلامه وأوجاوعه وأحزانه؛ خوفًا من الظالم؛ حتى يقوى ويتمكن، فيبادر بفرض قوته، وسعيه للانتقام لنفسه، وقبل أن يصل لمرحلة الانتقام ورح الثورة، لا بد أن يكون قد رسخ بداخل أنصاره ومريديه فكرة المظلومية، التي تسهم في التدبر والحيطة، والرغبة في الانتصار على الظلم، لذلك سعت المخيلة الشيعيَّة للإفادة الكبرى من استشهاد الحسين بن علي، وجعلت من هذا اليوم عيدًا حزينًا، أو احتفالًا سنويًا، يتم فيه تأجيج المشاعر، وتغذية روح الانتقام من خلال مسرحة معركة كربلاء، فتلعب الفرق المسرحية الشعبية دورًا مهمًا في ذلك، فيتم تجسيد مقتل الحسين في الشوارع، وأمام العتبات المقدسة، وتخرج المسيرات الكبرى التي تحمل لافتات تحمل اسم الحسين، أو تطالب بالثأر له، أو بالانتقام من قتلته، ولأن المظلومية الكبرى من خلال مقتل الحسين نجحت في خلق وعي عام شعبي، يسعى البعض إلى الانتقام من النفس عبر الإيذاء البدني، وإسالة الدماء؛ بحجة الانتقام من الذات التي خذلت الحسين.

ويحث الفكر الشيعي على زيارة الحسين بن علي يوم عاشوراء، والتأسي بسلوكه وتضحيته، فيذكر الطوسي أن من زار الحسين بن علي

١) راجع في ذلك محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥ ، ٢٩٣

عليه السلام يوم عاشوراء وجبت له الجنة[١] وللزيارة طقوس وواجبات ضرورية منها، التطهر، الوضوء، الصلاة، التزين وغيرها من الأمور التي تتشابه مع سلوكيات المسلمين عمومًا في العيدين[٢] إن الآداب التي فرضتها المخيلة الشيعيَّة تهدف إلى فرض القدسية المطلقة على يوم الزيارة، مكان الزيارة، زمان الزيارة، الإمام محل الزيارة، فكل هذه الأمور من مؤكدات القداسة المطلقة النابعة من الإمامة الإلهية، والمظلومية الواقعة على الإمام، تلك المظلومية التي تتيح لهم استعادة الحدث بكل تداعياته، ومن ثم دخول أجواء الدم المسفوك، وتبدأ مراسم العزاء بالبكاء، والبكاء عندهم هو تقليد لبكاء " الملائكة والأنبياء، والأرض والسماء، والحيوانات والصحراء، والبحر، على تلك المصيبة[٣] لأنهم يريدون شحن الهمم، وخلق المظلومية الكبرى، لا بد من اختيار العبارات الدالة على الحدث وقسوة المظلومية وفداحتها، لذلك نجدهم يشيرون إلى البكاء، وضرورته بطريقة نفسية عميقة، تؤجج النفس البشرية، وتشحنها شحنًا عظيمًا، فقال الإمام الرضا عليه السلام لريّان بن شبيب في حديث طويل :"يا ابن شبيب إن كنت باكيًا لشيء، فابك للحسين بن علي بن أبي طالب فإنه ذبح كما يذبح الكبش[٤] كان هذا خطاب المخيلة الشيعيَّة لأنصارها، في وصفهم لمقتل الحسين، وكانت وسيلتهم اللغة في خلق المظلومية، إننا أمام عمل تراجيدي متكامل، يسعى لخلق روح واحدة تملؤها الكراهية والرغبة في الانتقام.

تستمر مراسم التعزية بوسائل مختلفة، منها التحنيك، هو لمس فم الطفل لتربة الحسين، بهدف منحه القداسة، كي يطلعوا الطفل على تربة

١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٣٦٥ ، طهران، ج ٦، ص ٥٢.

٢) راجع في ذلك : جواد محدثي، موسوعة كربلاء، تر: خليل زامي العصامي، دار الرسول الأكـرم، ١٥ : ٢٠

٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٥، ص ٢٢٠

٤) المرجع السابق، ج ٤٤، ص ٣١٣

الشهادة، وقداسة الأئمة وعاشوراء[١] لو تدبرنا هذا الفعل لتأكد لنا، أنهم بهدف تربية الأجيال على فكرة المظلومية الكبرى، من أجل خلق هذا الجيل الذي لا ينسى، ويسعى طيلة عمره مخلصًا لهذه الفلسفة، التي تؤسس لفكر الشيعة الاثنى عشرية وأصولهم المذهبية.

ومن الطقوس المهمة التي تسهم في التأسيس لفلسفة المظلومية طقس التطبير، وهذا الطقس يكون في الصباح المبكر من يوم عاشوراء، يرتدي بعض الأشخاص الملابس البيضاء " الكفن " ويسيرون في جماعات، يضربون رؤوسهم بالسيوف، حتى تسيل الدماء على وجوههم[٢]

كنت قد ذكرتُ من قبل أن فلسفة الاثنى عشرية تقوم على مسرحة أصولهم بهدف خلق تراجيديا شيعيَّة، تشبه التراجيديا اليونانية؛ لتحقق الهدف المرجو منها، وهو خلق المظلومية التي تصنع جيلًا يؤمن إيمانًا مؤسسًا على وعي بالمظلومية العامة والخاصة، ومن ثم يسير وفق مشيئة الفقيه الولي دون تفكير أو تساؤلات، قد تؤثر على المسيرة الشيعيَّة أو تزعزع الثقة بأفكارهم وفلسفتهم؛ لذلك تم خلق المظلومية التي تبرز بصورة واضحة في طقس التعزية، هذا الطقس الذي تراه الدراسة من أهم الطقوس المؤسسة لفلسفة المظلومية، " وهو نوع من الاستعراض يجريه بعض الأشخاص في ساحة أو منصّة أمام أنظار الناس، ويؤدّون فيه دور أبطال كربلاء بثياب خاصّة وبالمعدّات الحربية كالرمح والسيف والدرع والخنجر والقربة والحصان، ترافقها أصوات الطبل والبوق، والناي، والسنج، والدمام، ويمثّلون مشاهد مستقاة من وقائع الطف حسبما ورد في كتب المقاتل[٣] تكون بهدف التأثير العاطفي على الحضور من الشيعة، وبعض السنة الذين يعيشون في المدن المقدسة، أو الذين جاءوا بهدف السياحة وفهم ما يدور في العتبات المقدسة، ومن الواضح أن مراسم التعازي والاحتفال بيوم عاشوراء قد ظلت

١) السابق: ج ٩٨ : ص ١٢٤

٢) جواد حدثي، موسوعة عاشوراء، دار الرسول الاكرم – دار المحجة البيضاء ، ط١، ١٩٩٧م ص ٩٣

٣) المرجع السابق : ٩٥

قيد التطوير والتحديث، فهناك من يذكر أن التعزية الممسرحة المشار إليها، قد ظهرت في عهد الدولة الصفوية، وهذا ما يؤكد فرضية البحث القائلة بأن المظلومية كانت منذ بداية التأسيس للمذهب الشيعي الاثنى عشري، أصلًا خفيًا من أصول المذهب، ارتبطت بأصل الإمامة، وظلوا يتداولونها في سرية تامة، فيما بينهم؛ حتى تحين اللحظة الحاسمة، التي يصلون فيها إلى مركز القوة، وصناعة الحدث؛ فيظهرون ما كانوا يكتمون تقية، لذلك بدأت التعازي الممسرحة تظهر للعلن حال تأسيس الدولة الصفوية، التي تقوم على المذهب الاثنى عشري، وتضمن لمعتنقيه، وللمؤسسين لفلسفته الأمان والسلامة.

لا شك أن الفكر الشيعي بصفة عامة وفلسفة المظلومية بصفة خاصة قد تشابها مع الفلسفات الشرقية التي سادت البلدان الحضارية السابقة للحضارة الإسلامية، فالمدقق في فكرة التعازي يجدها فكرة ممسرحة، قريبة من المسرح التراجيدي الإغريقي، ومن يتعمق أكثر يجد في فكرة التعازي الاثنى عشري روائح أو أثار أسطورة إيزيس وأوزوريس، تلك الأسطورة الممسرحة، التي كانت تمثل في مسارح معابد الدولة الفرعونية القديمة، وتتشابه في فكرة المظلومية، والثأر والعودة للحياة مرة أخرى، فأوزوريس قتل غيلة وغدرًا، وهو في هذا يشبه الأئمة المختارين إلهيًا، وأيزيس توازي النخبة الشيعيَّة، التي تسعى جاهدة لاستعادة الحق المسلوب والتأسيس له، حتى تتم الرجعة الكبرى التي تشبه عودة أوزوريس للحياة مرة أخرى، ويبقى الظالمون الساعون لحجب الإمامة عن آل البيت وقتلهم وقهرهم، هم إله الشر عند الفراعنة " ست " إنني لا أجزم بتأثر فلسفة المظلومية الاثنى عشرية بالفكر الفلسفي للأسطورة الفرعونية، لكن بإمكاني أن أعتقد أن ثمة تشابهًا إنسانيًا في الفكرة والمضمون والهدف، وهذا ما يؤكد أن فلسفة المظلومية سلوك إنساني يلجأ إليه الإنسان الذي يظن نفسه مقهورًا رغبة في استعادة حقه المزعوم.

الخاتمة

بعد رحلة القراءة في المرويات الشيعيَّة الاثنى عشرية، ودراسة أصولهم الفكرية والفلسفية، ومن خلال الدراسة والتحليل لعقيدتهم استطاعت الدراسة أن تتوصل إلى النتائج التالية:

أولا: كشفت الدراسة عن الارتباط الواضح بين فلسفة المظلومية في العقيدة الاثنى عشرية وبعض الفلسفات القديمة كالفرعونية والإغريقية.

ثانيًا: كشفت الدراسة أن فلسفة المظلومية جزءًا أصيلًا من أصل الإمامة الذي قام عليه المذهب.

ثالثًا: أوضحت الدراسة أن المخيلة الشيعيَّة وظفت الأحداث التاريخية لخدمة أهدافها والتأسيس لفلسفة المظلومية من خلال حادث الغدير، السقيفة، أرض فدك، استشهاد الحسين بن علي.

رابعًا: أوضحت الدراسة أن فلسفة المظلومية تعد أسلوب حياة في المذهب الاثنى عشري.

خامسًا: كشفت الدراسة عن أساليب التربية الشيعيَّة القائمة على التأسيس للمظلومية في عقول الأجيال المتعاقبة بهدف خلق وعي جمعي ينقاد للفقهاء دون تردد أو اعتراض.

سادسًا: كشفت الدراسة أن استشهاد الحسين بن علي يعد الحدث الأهم في التأصيل لفلسفة المظلومية التي شكّلت سلوكيات المجتمع الشيعي الاثنى عشري ونظرته للمجتمع وللعالم من حوله.

سابعًا: أوضحت الدراسة من خلال تحليلها لفلسفة المظلومية أن السلوك العدواني في الدول التي قامت على أكتاف المذهب الشيعي الاثنى عشري نتاج طبيعي لعمليات التربية القائمة على الشحن ضد المخالفين لهم، من خلال ترسيخ فلسفة المظلومية.